مصادر النص القرآني في الخطاب الاستشراقي

الدكتور: تاج محمد

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

اهتم المستشرقون بالقرآن الكريم لدرجة أنهم قرأوه وفق مناهج متعددة قديمة وحديثة، ونحن في هذه المحاولة نقارب المستشرقين في تصوراتهم لبنية النص القرآني من خلال بعض المناهج التي اعتمدوها.

Résumé : Le coran a été pris en charge par les traducteurs et chercheurs orientalistes.a cet effet ils l'ont étude selon leurs propres méthodes anciennes et modernes Dans cette article nous avons cherche a nous rapprocher des orientalistes dans leurs opinions concernant la structure textuelle du saint coran

تأخذ هذه المقاربة عنوان « مصادر النص القرآني في الخطاب الاستشراقي " وهو عنوان ينبىء أن المعالجة ستقتصر على البحث في مدونات الاستشراق وبالتحديد فيما يتعلق بالقرآن الكريم وخاصة عن أرائهم في مصادر القرآن الكريم، وهذا أساسي في عنوان كهذا. ولكنني قبل الإجابة عن الأسئلة المفترضة لهذا الموضوع، أود أن أشير إلى مجموعة من التساؤلات أسميتها تساؤلات الكتابة : فإلى أي مدىً يمكن للقارئ أن يكون أمينا في نقل مرجعيته المعرفية فيعترف لهذا، ويرد الفكرة لذاك ؟ هل التأويل يمكنه أن يعطي ملكية الفكرة ويخلص الباحث من عباءة النصوص المنقولة ؟ والى أي حد يمكن للمنهج أن يكون طريقا للتملص من هذه المرجعية.

وما المناهج التي نتوسل بها لمقاربة مسائل الدين، خاصة تلك المتعلقة بما تعدّه الأديان خوارق ومعجزات تشد التاريخ إلى عوالم ما ورائية منفلتة عما تعتبره فلسفة العلم الوضعي شروطا موضوعية ضرورية تحكم العالم الأرضي بكل ظواهره الطبيعية والإنسانية. وبقيت " الموضوعيّة الوضعية " منذ نشأتها معول هدم للإيمان الدّيني لأنّ الحقيقة في المنظور الوضعي تتوقّف على قابليّة الظّواهر للتّعقّل ضمن شروط التّاريخ، فلا مجال للتّعويل على أسباب ومؤثّرات تحرّكها قوىً ومعطيات من خارج العالم الأرضي أو من داخله إذا استعصت على الاختبار .

في خضمّ هذا السياق المعرفي الذي كرّسته فلسفة الحداثة القائمة على مركزيّة العقل والذّات المتعقّلة، تتنزّل المباحث التي تقارب مسائل الدّين والموزّعة على مجالات معرفيّة متعدّدة كعلم الأديان

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المقارن والمقاربات السوسيولوجية والسيكولوجيّة والأنثروبولوجيّة والماديّة التّاريخيّة... وكانت مدارس الاستشراق على اختلاف توجّهاتها وخلفيّاتها الثّقافيّة والفلسفيّة والإيديولوجيّة امتدادا لهذا الأفق المعرفي الذي تحوّل من منهج نظري للفهم والتّحليل إلى حركة مناضلة تحمل رؤية للوجود وإيديولوجيا كونيّة .وانكبّت هذه المدارس على تمحيص المدوّنة الإسلاميّة كما لم يحصل منذ قرون حيث توقّف إنتاج المعرفة عند المسلمين على ثقافة التّقليد ممثّلة في الشّروح والتّلاخيص والمختصرات والمتون والرّسائل المدرسيّة. لذلك، ومهما كانت تحفّظاتنا على نتائج الدّراسات الاستشراقيّة، فالثّقافة العربيّة والإسلاميّة مدينة لها بتدشين مرحلة جديدة لإنتاج معرفة عن الإسلام وتاريخه وعلومه أشبه بعصر تدوين معاصر.

ولعل الذي دفعني إلى هذه التساؤلات، الكتاب الذي أصدره الكاتب والمؤرخ التونسي الدكتور هشام جعيط في السيرة النبوية، وهو كتاب من جزئين عنوان الأول منهما الوحي والقرآن أصدرته دار الطليعة سنة 1999 والثانية 2000 أما الثاني فقد عنون ب تاريخية الدعوة المحمدية في مكة " أصدرته دار الطليعة سنة 2007 .

ويعتبر الكتاب الأخير للدّكتور جعيّط امتدادا للأفق النّظري الذي يتحرّك فيه الإستشراق المعاصر عموما رغم نقده الشّديد والصّريح لترّهات الكثير من المستشرقين، لكن تبقى المقاربة الوضعيّة قاسما مشتركا بين أعمال الدّكتور جعيّط وأعمال المستشرقين. ونحن في هذا المقال، وإن كنّا لا نصدر عن موقف إيمانيّ أو فلسفي مسبق من المدرسة الوضعيّة، فإنّنا نريد من خلال تناول هذا الكتاب أن نسائل المنهج الوضعي ونختبر نتائجه المتعلّقة بمباحث ما أصبح يعرف بالإسلام الأوّل أو الإسلام التّأسيسي.

لقد ورد في مقدمة الكتاب مجموعة من القضايا التي أطرت البحث وأجابت على أسئلة قد يطرحها القاريء أثناء قراءته للكتاب، فقد ذكر أنّه تردد كثيرا بين الكتابة بالعربية أو بالفرنسية فالعربية فقيرة جدا في كل ما هو مصطلحات في الفلسفة والعلوم الإنسانية. [1]

كما قدم في كتابه المنهج الذي ألف به كتابه بقوله" وقد حاولنا في هذا الكتاب الاعتماد على المعرفة واستنباط منهج عقلاني – تفهمي لم نجده لا عند المسلمين القدامى من أهل السير والتاريخ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والحديث، ولا عند المسلمين المعاصرين، وأكثر من ذلك، إنّ المستشرقين على سعة إطلاعهم، لم يأتوا ببحث يذكر في هذا الميدان، وتبقى دراستهم هزيلة، ومقارنة بفحول الفكر والتاريخ في الغرب .وقد اعتمدنا على منهجية هؤلاء في مواضيع أخرى لأنهم لم يهتموا بالإسلام إلا قليلا .[2]

مصادرة غير علميّة

إنّ أوّل مفارقة تصدر عنها مقاربة الدكتور جعيّط هي وضع البحث الذي يروم الموضوعيّة العلميّة في تمثّل الإسلام الأوّل والنصّ التّأسيسي بين خيارين اثنين لا ثالث لهما : إمّا الإقرار بألوهيّة القرآن ونبوّة محمّد، فتنتفي بذلك مبرّرات البحث العلمي ويتوقّف الباحث لصالح مسلّمات العقيدة الدّينيّة، أو الإقرار بعلمانيّة الظّاهرة القرآنيّة والنّبويّة ونشوئهما ضمن الشّروط التّاريخيّة الموضوعيّة. وطالما أنّ الثّقافة الجاهليّة لم ترتق إلى مستوى المعارف الدّقيقة التي رافقت نشأة الإسلام ــ نظرا لضعف الوسط الذّهني والثّقافي الذي ظهر فيه حسب عبارة جعيّط ــ فإنّ التّأثيرات الخارجيّة في صياغة الخطاب القرآني والسّيرة النّبويّة هي ما يجب أن نبحث عنه لتكون معرفتنا علميّة.

إنّ هذه المصادرة القائمة على خيار "مانوي إثنيني" نور/ظلمة، عقل/لاعقل، علم/أسطورة ... هي مصادرة، حسب تقديرنا، تناقض مبدأ الموضوعيّة العلميّة لأنّها تستبق مسار البحث العلمي وتفترض نتائجه مسبقا وقد تدفع إلى التّعسّف على المادّة التّاريخيّة وتوجيهها وافتعالها أحيانا عبر الانتقاء أو التّضخيم أو توهّم التّناصّ بين النّصوص وتناسل الخطاب وهجرة المعرفة. نعم، لا يحقّ لنا انطلاقا من المقاربة الموضوعيّة أنّ نصادر بشكل وثوقي مسبق على نفي أيّ تأثيرات صاحبت تأسيس الإسلام تحت تأثير المسلّمات الدّينيّة، خاصّة وأنّ الاعتقاد الدّيني الإسلامي نفسه قائم على مبدأ تواصل الحقيقة التّوحيديّة بتصديق السّابق والهيمنة عليه وإكمال الدّين وإتمام مكارم الأخلاق ووضع اللّبنة الأخيرة كما ورد في الكثير من الآيات والأحاديث (وهو ما دعّم به جعيّط أطروحته في تأثير المسيحيّة السّوريّة على بناء الخطاب القرآني)، ولكن في المقابل لا يمكن لنا أن نصادر وبنفس المنطق الوثوقي الاستباقي على حتميّة وجود التّأثير الخارجي تناغما مع فلسفة العقل الوضعي الذي لا يؤمن بأيّ فعل خارج إكراهات الزّمان والمكان التي لم تثبتها الوقائع ولا يثق بطاقات خارقة للإنسان إلاّ في ضوء ما تثبته التّجربة والاختبار، بينما الفيصل في المبحث التّاريخي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حسب تقديرنا ليس القناعات الفلسفيّة والوجوديّة، بل وحدَها الوثيقة التّاريخيّة هي التي يعود إليها تحديد مقدّمات البحث التّاريخي ومساره وآفاقه ونتائجه سواء كانت افتراضيّة أم تقريريّة.

أمّا إذا غابت الوثيقة فلا يمسّ من مصداقيّة المؤرّخ في شيء أن يتوقّف عن الحكم والتّقرير والمصادرة ويعلن أنّ المعطيات الآنيّة تعوزه للتّوصّل إلى تفسير موضوعيّ للظّاهرة ويترك إلى حين مجال التّأويل للفلسفات والإيديولوجيّات والثّقافات.

إنّ الصّدور عن مسلّمات العقل الوضعي في مبحث تاريخ الأديان الكتابيّة، ولاسيما الإسلام يوهم أنّ الانطلاق من الإقرار بألوهيّة النصّ المؤسّس يستحيل معه إنتاج معرفة علميّة موضوعيّة عن الدّين، وهو حكم تفنّده الحركة العلميّة التي نشأت حول النصّ، تستكشف بنيته اللغويّة والحجاجيّة والمفهوميّة وتستفهم معانيه ودلالاته لتنتهي ــ بعيدا عن سياق الحجاج الدّيني العقائدي ــ إلى فرادته وانسجامه الدّاخلي، كما لم يمنع ذلك الفيلسوف وعالم اللاهوت الفرنسي من التّأريخ للأديان انطلاقا من تمثّل نظام الخطاب وفائض المعنى ضمن علم الهرمينوطيقا. وفي المقابل، ساهمت الدّراسات التّاريخيّة الصّادرة عن بشريّة النصّ ضمن ما يسمّى بـ"الإلحاد المنهجي" في المزيد من الحيرة والتّناقض والاضطراب العلمي.

فلو سلّمنا مثلا بالتاريخيّة الخالصة للنصّ المؤسّس ــ وهو ما عجزت جميع المقاربات التّاريخيّة عن أن تقيم الدّليل الموضوعي عليه ــ بما تعنيه من أنّ جملة من الشّروط الموضوعيّة ــ التي لم تحدّدها بدقّة أيّة دراسة علميّةــ توفّرت لتشكيل " الظّاهرة القرآنيّة " وظاهرة النّبوّة، فلماذا توفّرت تلك الشّروط في ذلك الزّمان وذلك المكان بالذّات؟ ولماذا اصطفت ذلك الشّخص بعينه؟ ألم تكن بيئات أخرى ــ مثل الحواضر الطّائفيّة المحيطة بالجزيرة العربيّة ــ وأشخاص آخرون في ذلك الزّمان أكثر قابليّة وجاهزيّة ــ بالمنطق الموضوعي ــ للقيام بأدوار رائدة في تشكيل ظاهرة النّبوّة وصياغة نصّ دينيّ متفرّد؟ وهل هذه الشّروط موقوفة على مرحلة تاريخيّة ولّت وأشخاص لن يتكرّروا؟ ومن ثمّ ما هي المبرّرات الموضوعيّة لختم النبوّة وتوقّف التّاريخ عن إنتاج الأنبياء منذ 14 قرنا؟ ولماذا فشلت كلّ محاولات التنبّؤ القديمة ــ بعد ختم النبوّة ــ والحديثة في استعادة مجال النبوّة باعتباره مسلكا من مسالك إنتاج المعرفة؟ ...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جميع هذه الأسئلة غير ميتافيزيقيّة وطرحها على المبحث التّاريخي مشروع . ولكن أنّى للعقلانيّة الوضعية أن تتصدّى لهذه الأسئلة وهي مقيّدة بمركزيّة العقل المحكوم بقوانين المادّة في مقاربته للظّاهرة البشريّة، وأنّى للمبحث التّاريخي الذي استعاض عن منهج تحليل الوثيقة بافتراضات قائمة على أطروحات فلسفيّة أو مستقاة من مناهج علوم أخرى لها منطقها الدّاخلي ومسلكها الاستدلالي والحجاجي الخاصّ، بينما لعلم التّاريخ، كما نتصوّر، خصوصيّته وتميّزه عن بقيّة العلوم.

ومع ذلك، فنحن نتساءل مع الدّكتور جعيّط إن كانت المقاربات التي تصدر عن هذا المنطق الموسوم بالعلميّة وفيّة للمبادئ التي تنطلق منها: فلماذا يعدّ التوقّف في المبحث التاريخي عند غياب الوثيقة ــ ويستتبع ذلك في موضوعنا عدم الإقرار بالتّأثير المسيحي الذي لم تثبته الوثيقة ــ سقوطا في المسلّمات الإيمانيّة، بينما لا يعتبر ذلك كذلك عندما يتوقّف عالم البيولوجيا والجيولوجيا عند ظاهرة يعجز عن تفسيرها؟ لماذا لا يستنكف الطّبيب مثلا من التصريح بعجزه عن تعليل أمراض عديدة لغياب المعطيات الموضوعيّة عن إدراكه؟ وكذلك يفعل العلماء الذين يدرسون الظّواهر الطّبيعيّة ويتوقّفون عند الكثير من الكوارث وتقلّبات الكون وحركة الكائنات، ولا يعدّون ذلك التّوقّف أو العجز منقصا من قيمة مجهوداتهم ولا مدعاة للتورّط في تأكيد المسلّمات الدّينيّة التي تصبّ في إثبات نظريّة الخلق الإلهي وخضوع الطّبيعة للإرادة الإلهية المطلقة ؟

إعادة إنتاج الاستشراق

إنّ أقصى ما توصّلت إليه المقاربة التّاريخيّة الموضوعيّة في تفسير ظاهرة النبوّة، هو ما صاغه المستشرق الألماني تويودور نولدكه (1836 / 1930 م) في مؤلّفه الضّخم " تاريخ القرآن " الذي أصدره سنة 1860 وترجم إلى العربيّة في طبعته الأولى سنة 2004 م وقد تبيّن بعد هذه التّرجمة أنّ الجميع عالة عليه في ذلك. وملخّص هذه المقاربة أنّ " جوهر النّبيّ يقوم على تشبّع روحه من فكرة دينيّة ما تسيطر عليه أخيرا فيتراءى له أنّه مدفوع بقوّة إلهية ليبلّغ من حوله من النّاس تلك الفكرة على أنّها حقيقة آتية من الله) "... ص 5)، وقد كانت تعتريه في وحدته وغربته أثناء التحنّث في الجبال والكهوف حالات من الغيبوبة والاضطراب النّفسي المرضي تنزاح به إلى عالم الأحلام والرّؤى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكن "أعوزته القدرة على التّجريد المنطقي إعوازا شبه تامّ . لهذا السّبب اعتبر ما حرّك نفسه أمرا موحى به منزلا من السّماء ولم يختبر اعتقاده إطلاقا بل اتّبع الغريزة... اعتبر هذه الغريزة صوت الله الذي أتاه وهذا ما ينتج الفهم الحرفي الظّاهر للوحي الذي يقوم عليه الإسلام..." (ص 6).

واعتبر نولدكه "أنّ الإسلام في جوهره دين يقتفي آثار المسيحيّة أو بعبارة أخرى أنّ الإسلام هو الصّيغة التي دخلت بها المسيحيّة إلى بلاد العرب كلّها" (ص 8)، كما اعتبر أنّ أفضل ما في الإسلام نشأ على منوال التّعاليم اليهوديّة والمسيحيّة فـ"إنّ محمّدا حمل طويلا في وحدته ما تسلّمه من الغرباء وجعله يتفاعل وتفكيرَه ثمّ أعاد صياغته بحسب فكره حتّى أجبره أخيرا الصّوت الدّاخلي الحازم على أن يبرز لبني قومه..." (ص 4).

فلا يمكن حسب تقديرنا التّسليم بالتّناصّ بين القرآن وغيره من النّصوص أو المصادرة على هجرة النّصوص وتناسلها دون بحث جدّي في بنية كلّ نصّ ومنطقه الدّاخلي وأساليبه وعوالمه الدّلاليّة. ويتطلّب ذلك توظيف مناهج علوم النصّ وتحليل الخطاب والحجاج ... ولعلّ عدم الانفتاح على هذه المعارف هو الذي أدّى مثلا إلى اعتبار أن آية "وأمرهم شورى بينهم " (الشورى 38) أضيفت إلى النصّ لأنّها "لا تنسجم مع نسق الآية التي وضعت فيها ... لا نرى ما يكون أمرهم هذا أي حكم المسلمين لأنفسهم في زمن النّبي "[3] . وهو نفس المنطق الذي قاده إلى اعتبار الآيات التي تحيل على مفهوم الشّرك في المرحلة القرآنيّة الأولى – مرّة في سورة الطّور ومرّة في سورة القلم – " إمّا فلتة أو منضافة "[4]، ذلك على اعتبار أنّ المفهوم الغالب في تلك الفترة عن الكفر هو كفر الجحود أو كفر النّعمة ثمّ تطوّر المفهوم في الفترة المدنيّة تحت تأثير المثاقفة والمناكفة مع أهل الكتاب ليصبح دالاّ على الشّرك. كما أدّى بالباحث إلى أن لا يستبعد " أنّ آيات قرآنيّة أعيد ذكر بعضها مرّتين خصوصا وأنّ في القرآن تكرارا بسبب صيغته الشّفويّة في الأوّل"[5] .

إنّ هذه الأحكام المتعجّلة كان يمكن اختبارها في ضوء ما أنتجه علم المناسبات مثلا من معارف متقدّمة في مجال البحث عن الانسجام الدّاخلي للنصّ وتناسق مكوّناته الخطابيّة والدّلاليّة ونظمه .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورغم إقرار الدّكتور جعيّط "أنّ التّأثير المباشر السّوري أيضا يدخل في مجال التّخمينات والافتراضات وليس لنا أيّ شاهد على ذلك "[6] . فقد انخرط في رصد المتشابهات اللفظية والمضمونيّة بين القرآن ونصّ إنجيلي عربي مفترض اعتبر من الصّعب تاريخيًا نفي اطّلاع الرّسول عليه، وذلك بناء على المصادرة التي انطلق منها أنّ "من دون المسيحيّة الشّرقيّة -السّوريّة لم يكن ليظهر محمّد وإلاّ فلا نرى كمؤرّخين حلاّ للإشكال ... بالنّسبة للمؤرّخ الموضوعي لا يمكن الانفلات من إقرار هذا التّأثير وهو ليس بالتّأثير السّطحي وإنّما العميق والمستبطن بقوّة وإلاّ عاد محمّد غير ممكن في بلده وفي زمانه أو وجب على المؤرّخ الإذعان والإقرار بألوهيّة القرآن مبدئيّا ونهائيّا والتوقّف عن كلّ بحث "[7] . ولم يتوقّف التّأثير المسيحي على القرآن بل تجاوزه إلى كتب السّيرة التي نسجت على منوال الأناجيل. وهو إقرار متسرّع حسب تقديرنا طالما لم يستثمر مباحث الخبر باعتباره أداة تواصل ثقافي قبل الإسلام وجنسا أدبيّا عربيّا أصيلا له مقوّماته، وليست السّيرة إلاّ ضربا من ضروب الخبر ينسحب عليها ما ينسحب على الأخبار من قضايا كالمشافهة والتّدوين والإسناد ومراتب التّحمّل والسّرد...

ولعل الشيء الذي يصل إليه القاريء لهذا الكتاب عدم إشارة الدكتور إلى المرجعيات الاستشراقية التي استقى منها أحكامه رغم أنّها منتشرة في معظم الكتب الكتب التي عالجت موضوع المصادر القرآنية.

مصادر القرآن الكريم :

لا تخلو كتب الاستشراق من بحث مسألة مصادر القرآن الكريم، فالمسألة لا تطرح إشكالا عند المسلمين إذ"يعتقد المسلم تمام الاعتقاد بصحة القرآن الكريم وصحة مصدره فهو وحي من عند الله تعالى بواسطة أمين الوحي جبريل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فألفاظ القرآن الكريم تدل على صحة المصدر، فهو في أعلى درجات البيان العربي "[8]وقد استمد المسلمون إيمانهم بالمصدر الإلهي للوحي من خلال آيات القرآن الكريم التي تثبت ألوهية الآيات قال تعالى:"قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[9]" وقال كذلك "وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى[10]وقال كذلك:"ولو كان من عند غير الله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، "[11]، قال القاضي أبو بكر الباقلاني:"إنّ القرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منها:ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، له أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أنّ الطرق التي يتقيد الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب منه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف[12].

وقال الزركشي :رحمه الله:"هو الكلام الجزل، وهو الفصل الذي ليس بالهزل، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره، بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كلّ مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه ....قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه، وقسّم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع ويقرّط المسامع، من تجنيس أنيس وتطبيق لبيق وتشبيه نبيه وتقسيم وسيم وتفصيل أصيل وتبليغ بليغ وتصدير بالحسن جدير وترديد ماله مزيد، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة والصناعة الرفيعة فالآذان بأقراطه حالية والأذهان من أسماطه غير خالية فهو من تناسب ألفاظه وتناسق أغراضه قلادة ذات اتساق ومن تبسم زهره وتنسم نشره حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق، كل كلمة منه لها من نفسها طرب ومن ذاتها عجب ومن طلعتها غرة ومن بهجتها درة[13]

إلا أنّ الموضوع بالنسبة للمستشرقين قد أخذ سبيلا آخر اعتمد على منهج يكاد يكون مشتركا (متشابها)عند المستشرقين كلما تناولوا قضية من قضايا الحضارة العربية الإسلامية، فقد حدد المستشرقون مصادر القرآن حسب الأولوية:

الأساس اليهودي ثم النصراني يمثل المصدر الأول للقرآن

المصدر الثاني هو الأساس الجاهلي، وإليه يرجع ما ذكر في القرآن من تقديس الكعبة وقصص عاد وثمود .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأخيرا يأتي المصدر الإسلامي الصرف وهو الأفكار الجديدة التي أضافتها عبقرية محمد الدينية[14].

دواعي تركيز المستشرقين في الهجوم على مصدر القرآن الكريم:

-القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة ودليل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهجه في العقيدة والشريعة وهو القلب النابض بعقيدته وتشريعاته وآدابه وأخلاقه، فإهدار قدسيته كونه وحيا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى يصبح وكخطوة أولى قابلا للنقد في محتواه، وفي خطوة ثانية، عدم ملاءمته لمقتضيات الحياة وتطورها، بل مصادماته لها، حتى يتم لهم ما أرادوا من الطعن في هذا الدين القيم[15]

-يزعم المستشرقون أنّ مصدر القرآن الكريم هو اليهود، والنصرانية، وأنّه في هذا استمداد بين كتب اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل وبين التراث الذي خلّفه علماؤهم يقول جولدزيهر:"1850-1921- في سياق تشكيكهم في مصدر القرآن الكريم من خلال تعدد القراءات، وأنّ القرآن ليس له نص واحد مع كثرة المحاولات التي لم يحالفها التوفيق، يقول ما نصه: "في آية 54 من سورة البقرة يدور الحديث حول غضب موسى حين علم بصنع بني إسرائيل عجلا من ذهب وعبادتهم إياه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي فليقتل بعضكم بعضا، أو بالمعنى الحرفي للنص:فاقتلوا أنفسكم بأنفسكم، وهذا ينطبق في الواقع على ما جاء في سفر الخروج فصل 32فصلة27الذي هو مصدر الكلمات القرآنية[16].

ويقول في موضع أخر في تعميم يشمل الإسلام:"وكما تقدم تعاليم الإسلام حتى في مرحلته البدائية صورة في مذهبي الانتخاب والمزج "ومن اليهودية والنصرانية وديانة الفرس وغيرها "كذلك عملت أثار أجنبية من التجارب العلمية النافذة من المحيط الخارجي بتنمية ماجدّ بعد ذلك من المسائل "[17]

ويرى الأب قزي المستعير لنفسه لقب "أبو موسى الحريري "أنّ القرآن قد تأثر بالفرقة اليهودية، النصرانية التي تدعي بالإبيونية - (EBIONITES) وهي فئة من اليهود المتنصرين سموا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنفسهم بالفقراء أمنوا بالله الواحد الذي لا يلد، كما أمنوا بالمسيح ككلمة مخلوقة مرسلة فحسب نبي من الأنبياء لا يعترفون بلاهوته ولا بنوته الإلهية بل هو رجل كسائر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان، تقوم رسالتها على التعليم والتبشير ولا تؤمن بالفداء والخلاص تعترف بانجيل معتمد واحد يسمونه الإنجيل حسب العبرنيين تلتزم بأحكام التراث تحبذ الطهارة والاغتسال الدائم بالماء وتحرّم غير المذكى، ترتدي الألبسة البيضاء وتدعو إلى مكارم الأخلاق تدعو إلى عمل البر والاهتمام باليتامى والعناية بالفقراء المساكين وأبناء السبيل........وهي المعاني التي نجدها في الإسلام والنص القرآني وقد دعا أتباعه الفقراء إلى الله وآمن بالتوحيد المطلق وبإنسانية الكلمة وأنكر لاهوت المسيح وعدّه نبيا عظيما ونجّاه من الصلب ورفض دلالات الصلب والفداء والتكفير وعظّم أحكام التوراة والإنجيل ومكارم الأخلاق والأعمال الصالحات كما هو معلوم وهذا ما يجعل من المسيحيات القرآنية استمرارا للفكر الإبيوني البائد(18)

ويدعم أبو موسى الحريري هذه المقارنة برؤية تاريخية توظّف ما ورد في النص القرآني من إشارات إلى النصارى وتعقد مقارنة بين الإبيونيين وما يروى عن ورقة بن نوفل ليبين تطابقا يدعم به فرضية وجود الإبيونيين في الجزيرة العربية وفي مكة بالذات، ربما هاجروا إليها بعد خراب هيكل أورشليم فأقاموا فيها وأذاعوا منها ثقافتهم الدينية التي وجدت أذانا صاغية وقلوبا واعية بلورت النص القرآني وبذلك تطعمت المقارنة ببعد تاريخي صيّرها دليلا قويا على التأثير والتأثر(19)

ويقول الأب شيخو في معرض حديثه عن النصرانية في الحجاز:"والظاهر أنّ بعض البدع المعروفة بالبدع اليهودية النصرانية (SECTES Judeo-chretiennes)شاعت خصوصا في نواحي العرب كشيوع الناصريين(Nazarenes) و(EBIONITES) والكسائيين (Elekesaites)، يلمح بذلك إلى أنّ النصرانية المؤثرة في الحيز المحمدي والنص القرآني هي البدع النصرانية المندثر، كالناصرية، و الكسائيين التي قدمت تفسيرا خاصا للأناجيل لا يفترق كثيرا عن النصرانية الإبيونية في كل ما يتعلق باللاهوت والمسيحيات. لقد كانتا قريبتين إلى عصر النبي محمد –صلى الله عليه وسلم – مقارنة مع البدعة الإبيونية التي بادت منذ زمن بعيد، وباد معها احتمال تناص القرآن معها ونسبته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إليها، لأنّه لا يمكن محمدا صلى الله عليه وسلم، ولا هو في عصره أن يكون مطلعا على نصوصها وعقائدها[20].

ويؤكد كريستي ولسون(J.christy wilson) أنّ مصدر القرآن ليست الأناجيل المعتمدة، ولا"الكتاب المقدس"بعهديه القديم والجديد، وإنّما هي أناجيل الأبو كريفا والمصادر التلمودية اليهودية التي كانت منتشرة بين النصارى، ومع ذلك فلا يشير إلى واحد بعينه.

وما أجمله كريستي ولسون (J.christy wilson) قد بسطه فيليب حتّى(Philip k.hitti)إذ قد بيّن وجود أواصر القربى بين القرآن وأناجيل الأبو كريف(Apocryphal Traditions) والثقافة النصرانية التي كانت تنتشر بين النصارى السريان ويخص بالذكر إنجيل طفولة المسيح(Gospel of the infancy) من بين عشرات الأناجيل المنحولة التي أراد واضعوها كتابة قصة حياة المسيح ...تتفق مع ما ورد في القرآن الكريم، مثل الكلام في المهد والخلق من الطين، كهيئة الطير ومع ذلك لا يقول فيليب حتّى بالاقتباس ولا، بالانتحال ولكنّه يقول إنّ محمد صلى الله عليه وسلم قد أسلم وعرّب وأعطى طابعا محليا للمادة الإنجيلية[21].

مصدر القرآن الحنفية:ذهب بعض المستشرقين ومنهم تسدال ومستر كانون إلى أنّ مصدر القرآن الكريم هو الحنفية ودليلهم التوافق بين أحكام القرآن وبين ما يدعو إليه الحنفاء في أمور كثيرة منها:

توحيد الله.

الحديث عن الجنة والنار.

الإيمان بالبعث والنشور والحشر والحساب وأمور القيامة وغير ذلك.

وهذا ما زعمه شبرنجر أنّ أفكار محمد لا تخرج عن الأفكار التي كان يدعو إليها زيد بن نفيل أحد هؤلاء الحنفاء، وقد كتب المستشرقون في معنى كلمة الحنفية واشتقاقها وأصلها وهل هي عربية الأصل أم عبرية أم كنعانية آرامية بحوثا كثيرة[22].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زعم بعض المستشرقين أنّ القصص القرآني أخذه الرسول صلى الله عليه وسلم عن اليهود والنصارى القاطنين بمكة، فها هو ريجيس بلاشير يشير إلى التشابه بين القصص القرآني والقصص اليهودي المسيحي، وفي رأيه كان التأثير المسيحي واضحا في السور المكية الأولى[23].

ويزعم وات دون دليل ولا حجة أنّ الفكرة اليهودية والنصرانية كانت منتشرة في الجزيرة العربية ولاسيما في مكة[24].

وقال بلاشير في تعليقه على قوله تعالى:"أو كالذي مرّ على قرية"[25]إنّ.هذه القصة مطابقة للأسطورة المنتشرة في الشرق وفي الثقافة اليهودية النصرانية

وفي تعليقه على الآيتين الكريمتين من سورة الحشر"23/ 24 بأنّهما متأثرتان بالأفكار اليهودية قلبا وقالبا[26].

وأما المستشرقون من اليهود مثل جولدزيهر، وباول كراس وبرناد لويس وغيرهم من اليهود فقد عرفوا بالتحامل الشديد على الإسلام والتشكيك في أصوله ومحاولة إثبات أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بشيء جديد، بل سرق كلّ شيء من اليهود والنصارى[27]

ولعل مما يؤسف له أن صورة العربي والمسلم والإسلام وحضارة الشرق قد رسمت معالمها أيام استيلاء الكنيسة على السلطة فقد سعت وهي في قمة تأثرها وحقدها برسم معالم هذه الصورة المشوهة والتي لم يرض عنها كثير من الدارسين الأوربيين ولعل ما يحدث اليوم بين الضفتين ناتج عن إنتاج تلك المرحلة فقد حملت هذه الذهنية ملامح صوره مستفزة تصور العرب بأحقر الصور وأفضع الرسوم.

يورد صاحب كتاب" المستشرقون" أن يوحنا الدمشقي في القرن الثامن الميلادي وبعده بسنتين عني كيرليس بالقرآن وناقش علماء الإسلام "ففي اعرق الآثار الأدبية التشكية المكتوبة بالسلافية القديمة، في أواخر القرن التاسع، قصة نزول القديس كيرلس Cyril الشرق العربي حوالي عام 850 ومجادلته علماء المسلمين أكباره لهم وثنائه على علمهم مع ترجمته لبعض آيات القرآن الكريم ولعلها من أولى ترجماته إلى اللغة اللاتينية[28].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أدرك الغرب سر تحول القبائل المتناحرة المتحاربة على أتفه الأسباب، إنه القرآن الكريم الكتاب الذي تكتبت حوله الأمم والشعوب بإعجازه على مستوياته المختلفة وحضوره المتنوع في قضايا البشرية.

القرآن كلام محمد وكتابه:

إن رفض التسليم بألوهية القرآن تعني ولا ريب بشرية وضعه، ولأن القرآن مرتبط بالنبي محمد ﷺ فهو حسب ذاك المنطق صاحب القرآن ومصدره، وهو كذلك في خطاب المستشرقين الذين يرون أن القرآن أُخذت تعاليمه وأحكامه وقوانين الطبيعة ووصف الكون من كتب السابقين وكتب اليهود والنصارى، ومحمد ﷺ فعل كل ذلك، جمعها وما كان منه إلا أن أعاد صياغتها في أسلوب جديد وإيقاع تطرب له الأسماع؛ مثلما عبر عن ذلك "كارل بروكلمان" بقوله: «فقد انبثق في الدرجة الأولى(يقصد القرآن)عن اليهودية والنصرانية فكيفه محمد تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه الدينية وبذلك ارتفع بهم إلى مستوى أعلى من الإيمان الفطري والحساسية الخلقية»[29].

ويزعم "جورج سال" بأن القرآن هو تأليف محمد ﷺ حيث يقول:«أمَّا أنَّ محمَّدًا كان في الحقيقة مؤلِّفَ القرآن والمخترع الرَّئيسيَّ له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح ـ مع ذلك ـ أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة. وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك».[30]؛ فالاعتراض في رأيّ سال دليل على أن محمد ﷺ واضع القرآن على الرغم من أنَّ قومه عارضوه جحدا منهم لما جاء به ﷺ، ولو صح أنهم عارضوه لأن سمعوا بمثل هذا القرآن من قبل لقالوا< سمعنا هذا وما أنت إلا كاذب> لكنهم أيقنوا تمام اليقين "حاشاه الكذب عليه الصلاة والسلام"؛ فهم مثلما وصفهم الله ﷻ في كتابه:﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [31]

ومثلما " يجزم **سال**" بتأليف محمد له، ينفي "**هنري ماسيه**" أن يكون كُلّ القرآن وحيا منزلا (لكنّ التشكيك في بعض القرآن ينسحب على كلّه) إذ يقول: «ما من شَكٍّ في أن القرآن لا يمكن أن يكون كله من نتاج الانخطاف الروحي، لأن هذا الانخطاف يفترض هياجا لا يتيح إلا صدور كلمات وعبارات متقطعة، ومن الممكن القول أن الأجزاء الأكثر قدما تعرضت لبعض التعديلات،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لكن من المستحيل إثبات ذلك ببرهان قاطع»[32]. ويعني بـ: "الأجزاء الأكثر قدما" أوَّلَ الوحيِّ المَكِّيِّ، وهو يشكِّكُ في صِحَّةِ وجودِه، هذا، ويفترض إن وجد لا يزيد أن يكون "عبارات متقطعة" فالبياض الذي فيه يكشف دور محمَّدٍ في ملئه وتأليف هذا الكتاب؛ وفي آخر المطاف لا يتعدىٰ أن يكون رأيا فقيرا لا يسنده أي دليل ويقرُّ "هنري" نفسه بذلك.

وفي ظل عجز "هنري ماسيه" عن سوق أدلة تؤكد صحة رأيه وتقيم الحجة علىٰ أن القرآن تأليف محمدي، يظهر "ولش" بتحليل يؤكد فيه علىٰ أن القرآن مصدره محمَّد ﷺ؛ ويبدو "ولش" في منهجه يعمل بالمبدأ القائل: إذا سلمنا بصحة هذا القرآن، بما جاء فيه وينصُّ عليه وصحة نقله وتدوينه، فإنه لابد أن تكون فيه دلالات تشير إلىٰ صاحبه لأن ما من مؤلف إلا وظهر أثر صاحبه فيه. وعليه يحاول من خلال تدارس بعض آيات الذكر الحكيم تحديد مصدره أإلاهي هو أم بشري، وخلاصة ما توصل إليه(ولش)أن: «كتاب المسلمين المقدس، والخبرة النبوية لمحمدﷺ جِدُّ متصلين إلىٰ درجة أنه لا يمكن فهم أحدهما فهما كاملا دون فهم الآخر؛ إنَّ العقيدة السنية أو الأصولية تقطع بأن الله هو المتحدث بالقرآن كله، وأن محمداﷺ هو المستقبل له، وجبريل هو الواسطة بين الله ومحمد في نقل الوحي؛ وذلك بغض النظر عن من يكون هو هذا الشخص الذي يجري الكلام علىٰ لسانه أو الذي يتوجه الخطاب إليه في القرآن»[33]

إنه لمن المُسَلَّمِ به ارتباط كتاب الله العزيز بالذات المحمدية[34].، ولا يتيسَّر فهمه إلا بمعرفة هذه الذات، ويدرك ولش حقيقة هذا الارتباط لكن ليس من باب التسليم بأن القرآن هو كلام الله بل يدعي أن لمحمدﷺ خبرة، مما يكشف ارتيابه في قطعيّة أمِّيَّة المصطفىٰﷺ ؛ ثم يناقش قضية إيمان المسلمين بأن الله هو المتحدث بالقرآن كله فيقول: «... إننا لا نصادف في الآيات أو الأجزاء التي تبدو منها أنّها أقدم نزولا في القرآن، أي من حيث كونها إشارة إلىٰ شخص معين يتحدث بالقرآن، أو إلىٰ مصدر واحد يمكن أن يُرَدَّ إليه القرآن كله! ففي بعض آيات منه كآيات سورة الشمس وسورة القارعة لا نجد أي إشارة تفيد أن هذا القرآن صادر عن إله..» [35].. فـ"ولش" يفرض وجود علامات دالة وإشارات علىٰ مصدر الكتاب ويشكك في إلهيته لأن بعض الآيات تخلوا من الإشارة إلىٰ اللهﷻ ويمثّل لصحة استنتاجه بسورتي الشمس والقارعة، وفي مقاله الطويل يشير إلىٰ آيات وسور

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غيرهما تُلوِّحُ ـ في نظره ـ بأن محمَّدًاﷺ هو الذي يتحدث بالقرآن؛ وهناك آيات أخرى تشير إلى أن المتحدث بالقرآن هو جبريل[36].

. فهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الله في رأي "ولش" بريء من نسبة القرآن إليه وما هو إلا كتاب بشري التأليف من صنع محمدٍ أو شخص آخر يدعى جبريل.

وتوصل "ولش" مثلما يبين "محمد أبو ليلة" من خلال دراسته التحليلية للآيات القرآنية إلى فكرة عن الرِّسالة السماوية مفادها أن الرسالة: "تُبَلَّغ عن طريق وسطاء (Intermediaries) والرسالة المحمدية متصلة بطريقة ما بالكتاب"[37] وهي فكرة توصل إليها من خلال فهمه للآيتين: قال تعالى: « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم ۞وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكِنْ جعلنَهُ نورًا نهدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صراطٍ مستقيمٍ» [الشورى: 51ـ52].

هاتان الآيتان تبينان الأنواع الثلاثة التي يرد بها الوحي من الله تعالى، فهو إما أن يكون: «وحيا يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله، أو من وراء حجاب كما كلم الله موسى ﷺ وحين طلب الرؤية لم يُجب إليها...أو يرسل رسولا وهو الملك فيوحي بإذنه ما يشاء بالطرق التي وردت عن رسول اللهﷺ.»[38]. .ويعتبر ولش أن تعدد مظاهر الوحي أدى بالضرورة لتعدد المتحدثين بالقرآن وعليه تباينت سوره وآياته بين هي:

"ـآيات تخلو تماما من ذكر أي مصدر للقرآن؛ مع أنها فيما يبدو متقدمة النزول.

ـوأخرى تخلو كلية كذلك حتى من مجرد الإشارة إلى أن كلام القرآن صادر عن الله.

ـآيات يلوح منها أن محمدا هو المتحدث بالقرآن.

ـ آيات مكية تشير بضمير الغائب لربِّ محمد.

ـآيات من أواخر ما نزل بمكّة وأوائل ما نزل بالمدينة تقطع بأن الله نفسه هو الذي يقرأ الآيات والقرآن والكتاب؛ وفي الوقت نفسه توجد آيات تَنُصُّ على أنَّ الله لا يوحي إلى بشرٍ دون وسيط.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

_وجبريل الوسيط مثلما تصوره الآية سبع وتسعون من سورة البقرة(«مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِك»)وهو من الملائكة كيف له أن يحمل الوحي فيما نجد آيات تنص على أن الملائكة

ليسوا من حملته نحو الآيتين 17و64 من سورة مريم مما يعني أن جبريل لم يكن له دور على الإطلاق في نقل الوحي إلى النبي ﷺ(39).

فالخلاصة التي انتهى إليها ولش في تصنيفه للآيات صحيحة بشكل عام حسبما يقر بذلك أبو ليلة لكنه ينكر عليه ـ أي على ولش ـ سوء مقصده وتسييره لهذه النتائج في غير مسارها؛ إذ وجود آيات تخلو تماما من ذكر مصدر للقرآن أو تشير إليه يسوقها ولش دليلا على عدم ربانية الكتاب، ثم انكاره لأن يكون جبريل وسيطا بين الله ومحمد في نقل الوحي، وزعمه بأن القرآن من كلام محمد أو الملائكة على اعتبار الآيات التي وردت بلسانهم نحو قوله تعالى: «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد»[فصلت:6] أو قوله تعالى: «ولَمَّا جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا إمرأتك كانت من الغابرين»[العنكبوت33].

لكنّ الأصح والمستيقن منه أنهم يتحدثون في القرآن والله هو الذي يتكلّم عنهم بلسانهم فيه(في القرآن) مثلما تكلم على لسان موسى وعيسى وزكريا...

ويستغرب أبو ليلة موقف ولش ثم يدعوه لأن يتأمل كلَّ القرآن مادام قد تصفَّح بعضه ويبين له الغاية من أنه نزل مفرقا من خلال قوله تعالى: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ على مُكثٍ ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا»[الإسراء106]؛ وإنما نزل بالتواتر ليحفظ في الصدور؛ وقوله جل وعلا: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم»[التكوير19] ـالذي يسوقه ولش في إثبات أنّما القرآن كلام محمّدٍ ـويستطرد في تبيان الفرق بين القول والكلام وكيف يستحيل نسبة كلام الله الذي هو القرآن لغيره إن لمحمد أو جبريل أو أي أحد من خلقه فلا يصح إلا أن ينسب إليهم القول لا الكلام(40)..

وإذا أعدنا النظر في رأي ولش، نجده يلمح لقضية لطالما أثارها المستشرقون وركزوا عليها هي القرآن المكّي والقرآن المدني؛ إذ يشكِّك في صحة وجود الأول وجلي ذلك من خلال اهتمامه بتحديد الآيات التي تشير إلى الله، فإن كانت المدنية منها تشير إلى الله بصريح اللفظ، فإن المكية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسابقة في النزول تخلوا من تلك الإشارة، وإن وُجِدت كانت بضمير الغائب، من مثل قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين»[الفاتحة5] فهذا-حسب تفسير ولش- من قبيل كلام محمد لكن تفسير الآية غير الذي انتهى تفسير ولش إليه إذ يجمع المفسرون المسلمون على "أن طلب العبادة والاستعانة لا يكون من الله لنفسه ولكن معناه قولوا إياك نعبد وخلو السورة من الأمر فيه تقرب من الله تعالى لعباده وتقريب لهم"(41).

وإن ولش حاول الاقتراب إلى الذات المحمدية من خلال النص القرآني، فقد حاول غيره الاقتراب منه ﷺبأسلوب حديث قديم الأصول، وهو اعتماد علم النفس سبيلا في تحليل شخصيته ﷺ بالرجوع إلى ما نقلته السيرة عن حياته ﷺ قبل البعثة وأحواله بعدها، وتفسير ما صاحبه ﷺ من مظاهر نزول الوحي؛على اعتبار أن للعوامل الخارجية تأثير بالغ في إنتاج الأعمال الإبداعية.

إذ النص القرآني عملٌ إبداعيٌّ مثلما صرّح بذلك جب في كتابه (المذهب المحمدي) حيث يصف النبي ﷺ بالمبدع: «إن محمّدا ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أخرى شق طريقا جديدا بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه...وانطباع هذا الدور الممتاز لمكة يمكن أن نقف على أثره واضحا في كل أدوار حياة محمد»(42). فدور مكة يتبدى في أنها كانت قبلة للحجاج والتجار، وهكذا يكون الاختلاط بأناس من مختلف الأمصار، لكنّ النبي ﷺ"اعتزل هذا المجتمع في غمرة شبابه، وكان كثير الاختلاء بغار حراء لاسيما بعد زواجه من السيدة خديجة ـ رضي الله عنها- هذه العزلة التي كانت نتيجتها اصطفاء الله له لحمل رسالته وتبليغ روحه(القرآن)" (43).والمستشرقون اعتبروا هذه العزلة عاملا أساسا في انتاج القرآن وصنفوها ضمن التأثيرات النفسية مثلما يقول بذلك درمنجهام الذي حاول استحضار أفكار الرسول الأكرم وهو في الغار يتأمل: «حقا إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب ـ بل العالم غيب كله ـ لكن ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؟ ليرى الحق، وليسمع الكلم الخالد؟»(44)؛ ففي رأي هذا المستشرق أن مثل حديث النفس هذا كان يحدث به المصطفى نفسه وحين اشتد عليه توهّم أنه يوحى إليه، فهو يقول عن بداية الوحي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

«... وهناك(في الغار) كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى...وهو لم يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وكتب الرهبان الحق الذي ينشده، بل في هذا الكون المحيط... فلما كانت سنة 610م كانت الحالة النفسية التي يعانيها محمد على أشدها... ووجد في غار حراء مسرة(...)وكأنه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجار الصحراء تناديه مؤمنة برسالته...وفيما هو نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ وكان هذا أول الوحي، وأول النبوة»[45].

وإن "درمنجهام" وصف أول الوحي بأنه إلهام ووهم تهيأ له وهو نائم، فُسِّرت الحالات التي كانت تعتريه بأنها مرض نفسي فهو من قبيل الصرع أو الهرع (الهستيريا) أو الاضطراب العصبي، مثلما يصفه جوستاف لوبون حيث يقول« ويجب عدُّ محمّد من فصيلة المتهوّسين من النّاحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسي الدّيانات. ولا كبير أهمّيّة لذلك فأولوا الهوس وحدهم، لا ذووا المزاج البارد من المفكرين هم الّذين يُنشِئون الدّيانات، ويقودون النّاس»[46].

فلوبون يصف النبي بالهوس ويعد ذلك التفسير العلمي الصحيح لحالته–عليه الصلاة والسلام–فيما شهد له–عليه الصلاة والسلام–بزينة العقل ورجاحته؛ويعد آخرون القرآن نتاج اللاوعي للنبي يحقق فيه رغباته التي طالما كتمها خلال عزلته وكان لحالته الاجتماعية تأثيرا هي الأخرى على كتابة هذا القرآن ويستدلون على ذلك ببعض الآيات التي توافق رغباته –عليه الصلاة والسلام– من مثل تحويل القبلة أو الآية التي ورد أمر الله له بأن يتزوج السيدة زينب، على الرغم من أن الأمر أحدث استغرابا شديدا بين الناس، أو سورة الضحى التي نزلت تصف حاله، وتشد من أزره.

فيما يصفه آخرون بالمرض العصبي أمثال نولدكه يقول: «إنَّ سبب الوحي النازل على محمد، والدعوة التي قام بها، هو ما كان ينتابه من داء الصرع»[47].

والتعريف الطبي له:الصرع هو عبارة عن نشاط كهربائي، وتهيج في بعض خلايا المخ يحصل بين الحين والأخر، وهذا الصرع يعرف عن طريق التخطيط الكهربائي للمخ أو رسم الدماغ بالكمبيوتر لوجود بؤر سرطانية في المخ في الغالب، أو عبراستخدام الرنين المغناطيسي أو فحص النخاع الشوكي للمريض ويمكن معالجته عند الأطباء، وقد يحدث الصرع نتيجة أسباب كثيرة منها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إصابة قشرة الرأس واصطدامها بالمخ أثناء عملية الولادة أو عند تأخرها أو عند حوادث السقوط أو إصابة المخ بأورام سرطانية أو انتقال بعض بيوض الديدان التي تكون عند الخنازير عبر الدورة الدموية إلى مخ الإنسان[48].

وقد ثبت أن الرسول كان سليما لا يعتريه أي نوع من تلك الإصابات، كما ورد أن المصروع يصاب بمثل هذه الحالات:الإحساس بالتنميل – رؤية خيالات وأضواء – شم روائح معينة – خروج زبد من الفم -. وهذه الأعراض الأخيرة المشتركة بين الصرعين(الطبي والجني[49].

فيما ورد عن حال النبي –عليه الصلاة والسلام- أنه كان يتصبب عرقا في اليوم شديد البرد.

لكنّ المنطلق الذي انطلق منه المستشرقون في دراسة القرآن الكريم وسنة النبي –عليه السلام- يقضي بالإنكار فلا ريب أن تكون هذه خلاصة أبحاثهم، وخلاصة من نهج نهجهم .

إحالات البحث ومراجعه

1ـ تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط ط1 دار الطليعة سنة 2007 .ص7

2ـ المرجع نفسه ص12

3ـ تاريخية الدعوة المحمدية في مكة ص 23

4ـ المرجع نفسه ص200

5ـ المرجع نفسه ص23

6ـ نفسه ص 174

7ـ نفسه ص 164

8 ـ حنيف، عبدا لودود بن مقبول:مصدر القرآن الكريم أندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية – المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، في الفترة بين16-17/ 10/ 1457الموافق 7-9/ 11/ 2006م

9ـ سورة الإسراء / 88

10ـ سورة النجم / 3-4

11ـ سورة النساء / 82

12ـ الباقلاني، أبوبكر إعجاز القرآن ص36-38

13ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن 1/ 3-5

14ـ حنيف، عبد الودود بن مقبول:مصدر القرآن الكريم ص17

15ـ راضي، محمد بن السيد جبريل:مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين عرض نقد، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية ص27

16ـ جولدزيهر، مذاهب التفسير الإسلامي تر/ عبد الحليم النجار دار اقرأ–بيروت- لبنان ط2 1983 ص10

17ـ جولد زيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص171

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

18ـ فرحات عبد الحكيم، إشكالية تأثر القرآن بالأناجيل في الفكر الاستشراقي ، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية ص8-9
19ـ المرجع نفسه ص9-10
20ـ المرجع نفسه ص 10
21ـ المرجع نفسه ص 12
22ـ بن مقبول، عبد الودود مصدر القرآن الكريم ص53-54-55
23ـ القرآن والمستشرقون ص31 / من مصادر القرآن الكريم صدر الدين بن عمر ص6
24ـ كوشن، صدرالدين بن عمر :مصادر القرآن الكريم عند المستشرقين ص6
25ـ سورة البقرة / 259
26ـ كوشن المرجع نفسه ص7
27ـ كوشن، مصادر القرآن الكريم عند المستشرقين ص7
28 -(نجيب العقيقي 3/ 1032)
29ـ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 69.
30ـ محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 87، دار المعارف، القاهرة، بط، 1997.
31ـ النمل: الآية:13 ومن الآية 14.
32ـ هنري ماسيه، الإسلام، تر بهيج شعبان، ص 102، منشورات عويدات، بيروت، ط3 1988.
33ـ ولش، نقلا عن محمد محمد أبوليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلة، ص 93.
34ـ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص108
35ـ ولش، نقلا عن محمد محمد أبو ليلة ص93-94.
36ـ ينظر المصدر نفسه، ص 94-95.
37ـ المصدر نفسه، ص 94.
38ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، (مراكز الدار: القاهرة، بيروت، لندن)، ط15، 1388، م5، ج 19-25، ص 3169 -3170
39ـ ينظر:تقسيم ولش لآيات القرآن، محمد محمد أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص96.
40ـ ينظر المصدر نفسه، ص
41ـ ينظر تفسير القرطبي، ابن كثير، الجلالين، نسخة إلكترونية www.al-islam.com.
42ـ محمد دراجي، الاستشراق والدراسات القرآنية، دار البلاغ، الجزائر، دت، ص35.
43ـ ينظر، مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص119.
44ـ محمود ماضي، الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة،
45ـ الإسكندرية، مصر، ط1، 1996، ص123.
46ـ المرجع نفسه ص 124.
47ـ شوقي أبو خليل، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1998، ص76
48ـ ينظر http://alvea.free.fr
49ـ ينظر: http://alvea.free.f

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com